في الوطن والمستعمرين

طالب عبد العزيز

مرة أخرى تطير لتحط بك الطائرة هذه المرة في بلد عربي، كان قبل ثلاثين عاماً بدوياً لا يملك من الدنيا غير بضع خيام، توزعتها رمال الصحراء المديدة،وأقل من قطيع واحد من الماعز يحدو بها رعاة ظلوا يعبرون الليل والنهار سنوات طوالاً ،حتى وجدوا حاكمهم البدوي الزاهد،الذي تمكن من أن يسخر من الحضارة الجديدة بعقال ونعل .. وعصا راح يخطط بها بلاداً صارت اليوم واحدة من أجمل بلدان الشرق، فاستقدمت كبار المستثمرين والتجار والمثقفين وأصحاب الحرف ،مثلما استقدمت أفضل ما أنتجته العقول الإنسانية من مغرب الأرض ومشرقها.. تلك هي دولة الإمارات العربية المتحدة، وذلك هو الشيخ زايد بن سلطان (رحمه الله).

وكنت قبل ذلك تؤمن بما ساقه لك الساسةُ الوطنيون ،وكبارُ قادة الايدولوجيا بأن المحميات العربية، أو دول الخليج عامة، ما هي إلا إمارات صنعتها السياسة الأمريكية، بل هم مستعمرون في بلادهم لا شأن لهم إلا الائتمار بأوامر الإدارات الغربية وأمريكا خاصة، وأنها في نهاية المطاف ستصبح قواعد للاستعمار، وما إنعدام الحس الوطني فيهم إلا ظاهرة لا يختلف عليها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان، وما إمارتهم إلا كماء بقيعة يحسبه الضمآن ماء، وأنها ستؤول ذات يوم لأمريكا بقضها وقضيضها.. أما أنت، فأنت البلد والوطن والنخل والنفط والماء والجاموس، ويا كاع ترابج كافوري، وشوكي الج شوك إلكطه التايه.. وما وحول ومستنقعات مدن الجنوب إلا الكحل والهيل والروث الذي يعطر الروح ويبعث الأمل، والمستقبل لك ولأولادك بنينا وبنات، لأنك بلد الحضارات التي عمقها ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد وتحت الجذر التربيعي تصبح أنت سيد الدنيا بأكملها، فارفع رأسك وطب وانعم بمجدك أيها الأسد العراقي التليد، فأجدادك نبوخذ نصر وحمورابي وأنكيدو والمتنبي وسعدي الحلي والسياب والجواهري وعبود أبو الجبن.. وأمك عشتار اشرف عاهرات الدنيا والخنساء وقطام وحذام التي إذا قالت.. وحسنة ملص وزهرة الطويلة وشلتاغة أم الباقلاء.. فلا تحزن لأن الطريق المؤدية لبيتكم لم تبلط بعد وما التراب الذي تدوسه قدماك إلا تراب الجنة ولا تنزعج إذا رأيت الأزبال مكومة عند باب بيتكم فهي رائحة أهلنا، ولا تبتئس من ابن عمك إذا شتمك فهو لحمك ودمك، ولا تخشَ من الموت إذا ما أطلقَ عليك أحدُهم الرصاص في زفاف أو تشييع جنازة، فكل واحد يموت بيومه وما يكص الراس إلا اللي ركبه.. وهكذا أغمضَ أبوك عينيه وعمك وخالتك ،ومن قبلهم جدك وجدتك وستغمضهما أنت، لأن الاستعمار وأذناب الاستعمار هم وراء ذلك كله، وهم من خطط لنا وسرق نفطنا وجاء بحكامنا، ولأننا تركنا نهية الدين وراءنا وابتعدنا عن سيرة الأنبياء والأولياء والصالحين، وهذا كله من صنع أيدينا، وما ظلمناهم بل كانوا أنفسهم يظلمون..

في باحة فندق الميلينوم وسط (أبو ظبي)، قبل أن تصعد إلى غرفتك في الطابق الواحد والعشرين، وفي غفلة من أعين أصدقائك الذين جاءوا من العراق، رحت تستعرض صورة الوطن والوطنية والاستعمار والمستعمرين. وأنت ترى حشود الداخلين عرباً وأجانب من قارات الله السبع، فرحين متمكنين من يومهم، لا ضائعين ولا وجلين، أجمل نساء الله هنا مسكوفيات واوكرانيات، لبنانيات، وآسيويات، جاءوا بهم زرافات وفرادى رجالاً ونساء، أناسا يتكلمون بكل اللغات، يزدحمون على البهجة تجمعهم كلمة العمل والإخلاص والقدرة جاءوا ليبنوا بلداً لا تشكل نسبة مواطنيه أكثر من ١٨٪ من مجموع قاطنيه في الوقت الحاضر، عمارات شاهقة وناطحات سحاب، جزر ملونة، سقالات ورافعات في كل مكان وفي كل يوم يقوم مبنىً، أبو ظبي اليوم محج الزائرين والسياح، ومطارها من أجمل مطارات العالم، حتى الطبيعة القاسية روضت، فأنت ترى من شرفة غرفتك كيف تتلون الحدائق والطرقات والجزرات الوسطية، ترى كيف ينعم المواطن والمقيم بأحدث ما تنجزه الآلة الحديثة، حياة عمرها ٣٤ سنة فقط لكنها باهرة، بل إن الغربي لن يجد مثلها في بلاده، ستعجب من قدرة هذا البدوي الذي لن ترى صورة له في شوارع المدينة كلها، كيف تمكن من قهر الطبيعة الصعبة وترويضها ومحو كل العادات القديمة البالية التي جلبتها الصحراء، كيف تمكن من استبدال ثقافة اليرابيع بثقافة البلابل، البلابل التي تذكرتها الآن هي ليست بلابل بستانكم في أبي الخصيب، تلك التي طيرتها قنابل طائرات حروب الحدود ومن ثم سيارات (الإسلاميين) المفخخة. لقد طارت بلابلك أيها الشاعر وأنت تستمع لرواية أحد العراقيين الذين استوطنوا الإمارة قبل أكثر من ٣٠ عاماً، الضابط في جيش عبد الكريم قاسم، الذي هجر العراق عشية مقتل الملك عام ١٩٥٨ حين قص عليك حكاية دخوله وكيف أنه لم يجد سوى حيوانين لا غيرهما هنا (الفئران والذباب) والرواية على عهدته، أمام هذا كله يحلو لك أن تبحث عن الاستعمار اللعين الذي حملته معك فكرة وخيالاً، تريد أن تلمسه في الورد الذي يتبدل كل يوم في الجزرات الوسطية ، لتتأكد من صحة أفكار عمالقة الايدولوجيا في رأسك (شيوعيين واشتراكيين وطنيين وجمهوريين أحراراً وجهابذة إسلاميين، شيوخ عشائر.. الطوب أحس لو مكواري،.. هز لندن ضاري وبجاها) إلى آخر الخريط.. آخر السفسطات. لكنك لن تجد سوى عمارة تنبثق أمامك كل ساعة، سوى متجر باعته أمناء،نظيفون، سوى حدائق غُلبت مسدتها أيدي الملائكة المستعمرة وجعلت من الأبيض والأصفر والأحمر والوردي ملاعب يتمرغ عليها الصبية أول الصباح ،وينام قربها العشاق والمخمورون دون أن تهددهم مفرزة شرطة بسرية، أو دورية حزب إسلامي، أو أفكار من لا يحسنون إلا أن يكونوا أوصياء على العراقي ،حتى لكأن السنوات التي تمرغ بها في وحول الوطن لم تكن كافية لاختبار وطنيته، لكأن النظام السابق لم يعرض عليه أفضل مما يعرضه المستعمرون ،لكأن الوطن خرقة تباع وتشترى ، أو أنك لم تمتلك بعد ما يحصنك من الوقوف باسقا وقد نيفت على الخمسين، لكأن الشعر ليس كافيا لاختبار وطنيتك ؟ أو أن هناك من يعتقد بان الخبز الأبيض ثمن كبير لبيع الأوطان ؟

الجامعة العربية ورياح التغيير العاصفة!

كاظم حبيب

كالسعودية وليبيا واليمن والسودان وغيرها، أجبرت على الحديث عن التغيير والإصلاح والتقدم، برغم أنها تفهم كل ذلك بغير ما تفهمه وتريده شعوبها وتسعى إليه، وبالتالي فهي تسعى للاحتيال على الإصلاح الديمقراطي المنشود وتركب الموجة لتدير الدفة بالاتجاه الذي يرضي مصالحها ويكبت النزعات التي تعدها مضرة بقيمها البالية ورغبتها في البقاء بالسلطة.إن نظرة واقعية منصفة إلى مختلف الدول العربية ودول المنطقة سيجد الإنسان هذه الحقيقة صارخة، رغم الاختلاف في تقييم وتقويم طبيعة ما يجري في كل منها والتمايز النسبي المحدود الموجود في بعضها. حتى الجامعة العربية، هذا الجهاز البيروقراطي الجامد والمتآكل والثقيل والمحمل بأعباء الماضي والحاضر، بدأ يتململ من دون أن يمتلك الجرأة على الحركة والفعل والدفع باتجاه التغيير، إذ إن حركته من حركة الدول الأعضاء فيه، فهو حتى يومنا هذا لم يكن بالعامل المحرك والدافع نحو الأمام، بل كان صدى غير مسموع لسياسات الحكومات العربية والتابع للحركة السلحفاتية لتلك الدول، خاصة الدول المؤثرة فيه والمالكة للموارد المالية التي تصرف عليه وترفض الدفع حالما يخرج عن المرسوم له سلفاً. ولم تكن شكوى أمين عام الجامعة العربية عمرو موسى من دون وجه أو واقع ملموس تعانيه أجهزة ونشاطات الجامعة العربية.

جميع مؤتمرات القمة العربية واجتماعات وزراء الخارجية كانت تدور في حلقة مفرغة، لا لأنها متصارعة في ما بينها فحسب، بل لأنها جميعاً كانت لا تريد تغيير الحال، فليس هناك أبدع مما كان، وكفى الله المؤمنين شر القتال. ولقد تسببت الجامعة العربية في بعض الأحيان بخنق وإعاقة حركة البلدان صوب التقدم وحل مشكلاتها باسم القومية ووحدة الوطن العربي وما إلى ذلك من شعارات لم تكن مملوءة بالمضامين الديمقراطية، بل كانت الرغبة في الهيمنة والاستبداد والقهر للقوميات الأخرى هي المحرك لها والموجه لسياساتها. وهذا التشخيص لا يفرحني أبداً ولا يفرح من يريد لهذه الجامعة أن تسير باتجاه إنساني آخر، ولكن قول الحقيقة ضرورة إن كانت هناك نية للتغيير والإصلاح وسلوك دروب الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية.

واليوم تتحرك الرياح بقوة صوب الدول العربية والجامعة العربية من اتجاهات مختلفة ضاغطة عليها رافعة عن عورتها ورقة التوت التي كانت تستر بعبثية قاتلة ومكشوفة كل الأمراض والبلادة السياسية والبلايا التي كانت تسعى إلى تغطيتها ومواصلة السير عليها.

الشعوب العربية والشعوب الأخرى في دول المنطقة كانت تطالب منذ عقود بالإصلاح والتغيير الديمقراطي واحترام إرادتها الحرة ومصالحها. ولم يكن هناك من يسمع ولا من يجيب على تلك المطالب، فكل الحكام كانوا من دون استثناء تقريباً صماً بكماً عمياً فهم لا يفقهون. وأصبح صوت شعوب الدول العربية اليوم عالياً بل صارخاً والمطالبة ملحة ولم يعد إسكاتها ممكناً، برغم الاتجاهات المختلفة التي تسكن فيها.ثم تحركت رياح الولايات المتحدة الأمريكية باتجاه الدول العربية، إذ إن السياسات التي تمارسها حكومات الدول العربية يمكن أن تنسف مصالح الولايات المتحدة ذاتها في المنطقة وتتسبب في إلحاق أضرار بإستراتيجيتها على صعيد المنطقة والعالم.

كلنا يعرف إن للولايات المتحدة أجندتها وللشعوب في المنطقة أجندتها أيضاً. ولكن برغم التباين في المصالح، وبرغم التباين بين رياح الشعوب في الدول العربية ودول المنطقة، رياح التغيير الهابة على الدول العربية ودول المنطقة من الولايات المتحدة، فإنها مشتركة في تحريك السكون القاتل والمياه الراكدة المتعفنة.

في أثر ذلك بدأت الحكومات العربية تتخذ بعض الإجراءات بأمل أن يساعدها ذلك على تكوين انطباع إيجابي يوحي للآخرين وكأنها سائرة في طريق التغيير والإصلاح الديمقراطي، ولكنها تتخذ في الوقت نفسه كل الإجراءات الكفيلة بإعاقة كل تقدم مطلوب بالاتجاه السليم المنشود.

ما أن هبت رياح الولايات المتحدة حتى هبت القوى القومية اليمينية والشوفينية والظلامية محتجة على كل تغيير يراد تحقيقه في الدول العربية لأنها ترى فيه رياحاً قادمة من الولايات المتحدة، وغشت أبصارها حقيقة المطالب الشعبية بالتغيير والإصلاح الديمقراطي التي ناضلت الشعوب في المنطقة من أجلها منذ عقود. وبين هذه وتلك تحاول القوى الأكثر ظلامية ووحشية إعاقة كل شيء ودفع الأمور باتجاه إشاعة الفوضى والخراب والموت في مجتمعات الدول العربية. لقد نشرت منذ عدة أشهر مقالاً أشرت فيه إلى أن استمرار الإرهاب في العراق ودعمه من قبل قوى وحكومات عربية أو من دول المنطقة، سيسهم في امتداده على الدول العربية ودول المنطقة أيضاً، إذ إن القاعدة وغيرها من التنظيمات الإرهابية لها قوى هي في حالة قيلولة، يمكن أن تحركها متى شاءت، وها هي الآن تحركها في الكويت وبيروت وفي قطر، وستحركها في دول أخرى. وهي المشكلة التي لا تريد القوى المضادة للإرهاب أن تنتبه إليها وتعالجها على مستوى الأقاليم والدول في آن واحد. فلم يكن ما حصل في قطر سوى تأكيد ما أشرت إليه. فإشارة من العوفي السعودي فجر مصري نائم في قطر سيارة مفخخة، وهناك العشرات منها تنتظر الأمر في مختلف الدول العربية والإسلامية. وعلينا جميعاً أن نأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار ونتعامل في ضوئها مع الأحداث ومع هذه القوى الضالة والمجرمة. إن سقوط نظام الاستبداد والعبودية في العراق فتح الطريق على مصراعيه أمام تغييرات جديدة ستفرض نفسها حتى على أعتى الدكتاتوريات في دول المنطقة، وهي مناسبة جداً لتحرك شعبي لا لتغيير الجامعة العربية، بل بالأساس لتغيير الأوضاع في الدول العربية ومؤسساتها أيضاً. والتغيير هنا يعني حركة شعبية سلمية واسعة تستطيع فرض التغيير والإصلاح على حكامها وتجد الدعم والتأييد من شعوب الأرض قاطبة والمجتمع الدولي بأسره.

أمام اجتماع قمة رؤساء وملوك الدول العربية الراهن في الجزائر جملة من المهمات التي لا يجوز الوقوف أمامها من دون تحريك وتغيير مناسبين. فأمام هؤلاء الحكام قضايا لا يجوز ولا يمكن الهروب منها أو عدم مناقشتها، لأنها مشكلات كبيرة تدور في بلدان أعضاء فيها وعدم حلها يقود إلى كوارث كبيرة. إن علينا أن نعجل في تحريك المياه الراكدة والتخلص من الرياح المتعفنة فيها وفتح المنافذ عليها لدخول الماء الجديد والهواء النقي.

إن أمام الدول العربية عدة مهمات مركزية، يمكن تلخيصها بما يلي:

١- إعادة النظر بنظامها الداخلي وأسس عملها وعلاقاتها المتبادلة وطريقتها في اتخاذ القرارات ومدى إلزاميتها جميع الدول الأعضاء، إضافة إلى موضوع البرلمان المقترح ودوره في السياسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتقنية والعلمية والعسكرية في الدول العربية.

٢- الموقف من حقوق القوميات الأخرى التي تعيش مع الشعوب العربية جنباً إلى جنب، إذ لابد من تأكيد: حق تلك القوميات أو الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها وحقها في اختيار الصيغة التي تراها مناسبة في العلاقة مع الشعب العربي في كل من هذه الدول. ويمس هذا الموقف المبدئي حقوق الشعب الكردي والاعتراف بالحقوق الثقافية والإدارية للقوميات الأخرى في العراق مثل التركمان والكلدان والآشوريين، وكذلك شعب جنوبي السودان وغربي السودان والشعب الأمازيغي في الدول المغاربية. إن الاعتراف بوجود وحقوق تلك القوميات هو الطريق الأوحد لتعزيز الأخوة والتضامن والبقاء المشترك في دولة واحدة، والعكس سيقود بالضرورة إلى الصراع والنزاع وسيل من الدماء من دون الوصول إلى حلول ترضي الجميع. الاعتراف بالهويات القومية والثقافية الأخرى التي تعيش مع الهوية العربية في بلد واحد واحترامها والابتعاد عن الإساءة لها تحت أية واجهة كانت هو الطريق الضامن لسلامة أوضاع الدول العربية وسلوكها طريق الديمقراطية والتقدم والمواطنة المتساوية.

٣- رفض أية وحدة بين دولتين عربيتين أو أكثر من دون إرادة شعوبها واختيارهم الحر الديمقراطي.

٤- معارضة كل النظم الدكتاتورية والمستبدة التي تمارس الإرهاب والقمع ضد شعوبها وعدم الخضوع للابتزاز المالي من جانبها وملاحقة تلك النظم إلى حين الكف النهائي والفعلي عنها. ومن الممكن تجميد عضوية الدول التي تمارس التدخل والإرهاب ضد شعوبها بدلاً من التضامن معها تحت شعار بائس "أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً".

٥- الاعتراف الكامل بشرعة حقوق الإنسان وحقوق القوميات والعدالة الاجتماعية، بكل العهود والمواثيق المقرة دولياً وإقليمياً وعد ممارستها حقاً وواجباً على جميع الحكومات من دون استثناء ومحاسبتها في ضوء ذلك، والعمل من أجل إقامة المجتمعات المدنية الحديثة في كل دول المنطقة.

٦- رفض أي تدخل من جانب كل دولة عربية بشؤون الدول الأخرى والالتزام بمبادئ الاحترام والمنفعة المتبادلة وحل المشكلات في ما بينها بالطرق السلمية وبآليات ديمقراطية وعبر الهيئات الدولية والعربية والإقليمية، ورفض الحرب وسيلة لحل المعضلات.

٧- رفض الإرهاب ومكافحته على مختلف المستويات والمجالات والعمل من أجل إزالة التربة الخصبة التي ينمو عليها وفيها الإرهاب بمختلف أشكاله وصور ظهوره وممارساته. لا لابد من تحقيق التعاون بين الدول العربية لكسر شوكة الإرهاب تحت أية واجهة كانت.

٨- الدعوة الصريحة والجادة إلى ابتعاد كل الدول العربية عن الذهنية العنصرية والشوفينية والتمييز الديني والمذهبي والعمل من أجل خلق المواطنة المتساوية للإنسان في كل دولة من دول المنطقة.

٩- مساواة المرأة بالرجل وتمكينها من ممارسة جميع حقوقها وواجباتها، ومنع التمييز ضدها وحقها في الترشيح والانتخاب إلى جميع المراكز والمناصب في الدولة والمجتمع، ورفع الحيف عنها.

١٠- تحريم إنتاج واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً والعمل على منع انتشارها وعلى جعل منطقة الشرق الأوسط خالية من جميع أسلحة الدمار الشامل وتدمير المخزون منها في أي من دول المنطقة. ١١- العمل من أجل حل القضية الفلسطينية بالطرق السلمية واستعادة جميع الأراضي العربية المحتلة في فلسطين منذ ١٩٦٧ وتفكيك المستوطنات الإسرائيلية في غزة والضفة الغربية، وكذلك في الجولان السوري ومزارع شبعه اللبنانية بالطرق السلمية وعبر التعاون الدولي، ومساعدة الشعوب العربية وشعب إسرائيل من أجل العيش بسلام وأمن دائمين وعلى وفق الشرعية الدولية وبعيداً عن سياسات التطرف والحرب والعدوان الجارية حالياً وتأكيد ضرورة التخلص من العمليات الانتحارية للقوى المتطرفة في فلسطين أو عمليات القتل الانتقامية وهدم البيوت على رؤوس أصحابها والعقوبات الجماعية ضد السكان الفلسطينيين، ثم شجب وإدانة السياسة الشوفينية التي تمارسها حكومة إسرائيل منذ سنوات طوال في الأراضي المحتلة وفي إسرائيل ضد العرب.

١٢- تغيير المناهج التدريسية وتطويرها لصالح فكر الاعتراف بالآخر، بكل الأديان والمذاهب والاتجاهات الفكرية والسياسية، والتسامح وتنمية الروح الحضارية المدنية، والعمل من أجل ربط التعليم والبحث العلمي والتطوير التقني بعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتحديث المجتمع، وعدم الانعزال عن عملية العولمة الموضوعية ووضع سياسات مناسبة لدول المنطقة في هذا الصدد.

إننا إذ نطالب الجامعة العربية بكل ذلك، ندرك في الوقت نفسه إنها لا يمكن أن تتغير ما لم تتغير طبيعة مكوناتها التي تقرر سبل تغييرها، وبالتالي فالجهد يفترض أن ينصب أيضاً على تغيير واقع الحال في الدول العربية أولاً وقبل كل شيء وفق الاتجاهات المذكورة في أعلاه وغيرها، وهي العملية الأكثر تعقيداً، ولكنها الأكثر إلحاحاً وضرورة لمجتمعات الدول العربية ومنطقة الشرق الأوسط بأسرها.

> تتقاذف الدول العربية وبلدان المنطقة وشعوبها في المرحلة الراهنة رياح التغيير باتجاهات متعارضة ، وهذا التباين الصارخ في طبيعة ووجهة تلك الرياح أضعف زخم حركتها باتجاه الإصلاح التقدمي والعقلاني ، ولكنه مع ذلك تسبب ولا يزال يساهم في خلق حركة واسعة ومتسعة لكسر حالة السكون واختراق الجمود السائد في مجتمعات هذه البلدان طوال العقود الأربعة الأخيرة ، حتى أن الدول التي تعد أكثر جموداً وتحجراً واستبداداً وقهراً للإنسان ،

بعد سنتين على سقوط الصنم ... شيء من الأمل ... شيء من الخوف

وجهان للصورة العراقية لا يمكن الاكتفاء بأحدهما

زهير الدجيلي

من مصادفات الزمن ان تشهد الذكرى الثانية لسقوط نظام صدام مشهدين مثيرين، الأول انتخاب أول رئيس عراقي كردي على خلاف الاعتبارات السائدة منذ نشأة العراق الى الآن، والمشهد الثاني هو مشاهدة صدام حسين وعشرة من أركان نظامه وهم في السجن وقائع اجتماعات الجمعية الوطنية العراقية وهي تنتخب الرئيس الجديد جلال الطالباني والتي ينقلها التلفزيون. انها الأيام، يوم لك ويوم عليك، ولو دامت لغيرك ما وصلت اليك. بعد تسعة عشر يوماً من بدء الحرب، وفي التاسع من ابريل ٢٠٠٣ وصلت القوات الاميركية دون صعوبات كبيرة الى ساحة الفردوس قرب فندق فلسطين في قلب بغداد – الرصافة، حيث تمثال كبير للدكتاتور صدام حسين يتوسط الساحة.

اقتربت دبابة اميركية من النصب، وصعد احد الجنود الاميركيين لمساعدة مئات من العراقيين لوضع الحبل حول رقبة تمثال الدكتاتور ليربطه بالدبابة، فاقتلعته وسط صيحات تهليل وراح الحضور يحطمون مفاصل التمثال بعد اقتلاعه معبرين عن كراهية دفينة قمعها صدام طوال ٣٥ عاماً من حكمه.

ومنذ ذلك التاريخ اصبح هذا المشهد في عين العالم وذاكرته رمزا لسقوط نظام صدام وتأريخا لنهايته، فيما اعتبره العراقيون عيداً وطنياً. وفر صدام حسين الى جهة مجهولة بعيداً عن تماثيله وقصوره، فيما اختفت وتلاشت خلف حيطان وبيوت المدن وتحت سطح الأرض كل قواته وميليشياته.

وفي ٢١ ابريل وصل الجنرال الاميركي المتقاعد جاي غارنر الذي عينته واشنطن حاكما مدنياً مؤقتاً لعراق ما بعد الحرب، ثم أعقبه بول بريمر.

هل انتهت الحرب حقاً؟

ولكن الحرب لم تنته كما أعلن الرئيس الاميركي بوش، إذ ان مشهد سقوط الصنم في ساحة الفردوس كان مشهداً اعلامياً واحتفالياً، لكن الحقيقة كانت فيما حصل بعد ذلك من أحداث، رغم القبض على صدام وبقية رموز نظامه فيما بعد، كما ان خسائر العمليات العسكرية لغاية اعلان الرئيس بوش عن توقف الحرب لم تقف عند ١٣٩ جندياً اميركياً و٣٣ جندياً بريطانياً كما كانت تلك النتائج في ذلك اليوم، إذ ان تداعي الأحداث فيما بعد اثبت ان الحرب لم تنته، وأوصلت الخسائر الى أكثر من ١٥٠٠ جندي اميركي، وأكثر من ٢٠٠ جندي من قوات التحالف الاخرى لغاية شهر مارس الماضي، فيما تشير احصائيات تقريبية الى ما يقارب الـ١٩ الف عراقي قتلوا منذ الحرب لغاية الآن، وجرح ١٦ الف آخرين وتم اختطاف ما يفوق الـ٥ آلاف. لقد اتخذ نظام صدام قبل سقوطه قراراً يلزم قواته وميليشياته العسكرية والحزبية بالتواري والاختفاء خلف الحيطان وانتظار الفرص والاستعداد لشن حرب تخريب وتدمير شاملة في البلاد تعيق تحقيق الهدف الذي جاءت من اجله قوات التحالف، وهو هدف تغيير النظام ومساعدة الشعب العراقي على اقامة نظام ديموقراطي بديل.

ومر شهران اكملت فيهما القوى التي يقودها حزب البعث استعداداتها بالتعاون مع مجموعات ارهابية مع تنظيم القاعدة وغيرها من التنظيمات التكفيرية المتشددة، لتبدأ في شن عمليات تفجير سيارات واغتيال وتدمير للمباني والمنشآت المدنية والاقتصادية العراقية، واشعال الحرائق في المنشآت النفطية باعتبارها مصدر التنمية، وكانت تلك العمليات تركز في البداية على القوات الاميركية والأخرى المتعددة الجنسيات، لكنها في السنة الثانية اصبحت تركز أكثر على أجهزة الجيش والشرطة والحرس الوطني العراقي التي اعيد تشكيلها مما أدى الى مقتل ١٦٥٠ شرطياً وجندياً عراقياً لغاية مارس الماضي. كما شملت آلاف العراقيين بحملة خطف واغتيالات يومية مستمرة طالت النخب المتعلمة والمثقفة من العراقيين، ونشطت عصابات اجرامية متنوعة جراء قيام نظام صدام قبل سقوطه بإطلاق سراح ما يقارب ١١٠ آلاف من السجناء المحكومين بجرائم جنائية، مما ادى الى توفير عدة كاملة لفقدان الامن الذي اعاق الاعمار، وعطل اعادة البناء، وادى الى زعزعة الاستقرار في البلاد. وقد ساعد ذلك كثرة مخازن السلاح من مخلفات النظام السابق. كما ان سياسة بعض دول الجوار مثل سوريا وايران اللتين بنتا موقفيهما من العراق على مبدأ العداء للولايات المتحدة فقط دون النظر لمصلحة الشعب العراقي في التغيير، ادت الى المشاركة في زعزعة الامن بنشاط ودعم متنوعين.

إشكالية الأرباح والخسائر

لا يمكن اعتبار ما حصل في العراق من تغيير ذي وجه واحد. فالنظرة الموضوعية للاوضاع في العراق بعد سنتين من سقوط نظام صدام لا بد من ان تقودنا الى حساب الخسائر والارباح في آن واحد. انها بالنسبة للعراقيين، حالة فيها شيء كبير من الامل في بناء عراق ديموقراطي محكوم بقوانين الحرية والمدنية والمساواة، وفيها شيء كبير من القلق ايضا على هذا الامل والخوف من ضياعه جراء سلبيات كثيرة تعيق عملية البناء والاعمار.

فولادة عراق جديد كانت اشبه بالعملية القيصرية الصعبة، حيث ما كان بالامكان اسقاط نظام صدام من الداخل بسهولة ومن دون دعم خارجي. كما ان اسقاطه بالدعم الخارجي للمعارضة العراقية، وبالطريقة التي تمت كان عملية مكلفة للغاية، جعلت المشهد يبدو اشبه بتقويض دولة بأكملها لصالح غاية سياسية محفوفة بالمخاطر مما خلق اشكاليات كثيرة للوضع العراقي القائم الآن.

وجهان للصورة العراقية

فأنصار الوجه الاول هم غالبية الشعب العراقي الذين صمدوا ودفعوا الكلفة العالية لسقوط نظام صدام، وبدأوا بتجربة الديموقراطية التي جعلت العراق ينتقل من حاكمية الاحتلال الى حكومة عراقية منتخبة ديموقراطيا.

اما انصار الوجه الثاني من الصورة فهم يرون العراق مقبلا على كارثة، ينظرون اليه من زاوية ما يحدث يوميا فيه من تفجيرات واغتيالات وحرائق، متجاهلين الايجابيات والمنجزات في قطاعات الحياة المختلفة، غير معترفين بالتجربة الديموقراطية التي يمارسها الشعب العراقي، متهمين القوى المشاركة في العملية السياسية في العراق بالعمالة لأميركا والصهيونية، والكثير منهم يشجع القوى الارهابية التي تمارس العنف والقتل ضد العراقيين، معتبرين ذلك مقاومة، وهؤلاء تتحكم فيهم عقيدة ترى الامور من منظار سلفي غير واقعي ظل يلازم الفكر العربي مدة طويلة.

تحسن الوضع المعيشي

فالناتج المحلي ارتفع بنسبة ٦٥٪ مما كان عليه في آخر عامين من حكم صدام، وارتفع دخل المواطن العراقي بين ثلاثين الى اربعين ضعفا، فبينما كان متوسط الدخل الشهري لا يتجاوز الثلاثة دولارات اصبح الآن بين ١٢٠ الى ١٥٠ دولارا، وهناك شرائح كثيرة في الدولة والمجتمع تحصل على دخل يفوق الـ ٥٠٠ دولار. يقابل ذلك صدور عملة عراقية جديدة عوضا عن دينار صدام الذي كان لا يساوي قيمة الورق المطبوع عليه، وارتفعت قيمة الدينار العراقي الجديد بنسبة ٣٥٪ عن سعره السابق، فيما انشئت مصارف وبنوك محلية عديدة وصل عددها الى ٢٤ بنكا، وجراء الانفتاح التجاري الواسع الذي شهده العراق تأسست آلاف الشركات، وعادت بورصة بغداد للعمل بحيث ارتفعت اسعار اسهم شركاتها ١٠٠٪ خلال السنتين، وانتعش قطاع الاستيراد والتصدير، وتمكنت الحكومة من وضع ميزانية لعام ٢٠٠٥ تصل الى ٢٤ مليار دولار، ووصلت معدلات انتاج البترول الى معدلاتها السابقة في زمن صدام، حيث اصبح انتاج النفط يتجاوز المليوني برميل يوميا، لكنه تراجع الى ما لا يقل عن ذلك بسبب عمليات التخريب.

حريات لا مثيل لها في العالم العربي

يقابل ذلك ممارسات غير مسبوقة للحريات في العراق، فعلى الصعيد الاعلامي والتعبير عن الرأي والعقيدة والمذهب لا توجد قيود على ذلك مطلقا، وليس بمقدور اجهزة السلطة ان تتدخل، او تمنع اي ممارسة لهذه الحقوق والحريات، وبمقدور اي مواطن ان يبدي رأيه في اي كان من المسؤولين دون تحفظ او قيود. كان صدام حسين يمنع عن العراقيين كل وسائل الاتصال او حرية التعبير عن الرأي، ويحكم بالاعدام اي شخص ينتقده او ينتقد النظام. لقد ولى ذاك العهد تماما، تمكن العراقيون الآن من تحقيق الاتصال بالعالم الخارجي بإقبالهم على وسائل الاتصال الحديثة والتوسع في استخدام الستلايت والانترنت ووسائل الاتصال الاخرى التي كان يحظر عليهم استعمالها، واضافة الى حرية تشكيل الاحزاب ومنظمات المجتمع المدني التي شرعت بتنفيذ مئات المشاريع في المجتمع، صدر في العراق خلال السنتين ما يزيد على ٣٥٠ مطبوعا بين صحيفة يومية واسبوعية ومجلة، فضلا عن عشرات الاذاعات ومحطات التلفزة المحلية ووكالات الانباء، ان حرية الاعلام والنشر والتظاهر والتعبير عن الرأي في العراق لا مثيل لها في البلدان العربية والاسلامية قاطبة، وتحظى المرأة بمكانة متفوقة، فلا يوجد بلد عربي احتلت فيه النساء نسبة ٣٠٪ من البرلمان، ففي العراق الآن ٨٥ نائبة وست وزيرات و١٤ وكيلة وزارة وعشرات من النساء في مراكز قيادية في مجالس المحافظات، الى جانب ذلك قامت أكثر من ثلاثين رابطة ومنظمة أدبية وثقافية، وشهدت الحياة الثقافية العراقية نشاطا متنوعا في مختلف مجالات الفنون، فيما تمكنت الجامعات العراقية من استعادة دورها ونشاطها وحصلت على فرص كثيرة ومنح دولية تتيح لها تطوير علاقاتها التعليمية بالعالم الخارجي والحصول على تقنية المعلومات وتحديث المناهج.

مشاريع الإعمار

ورغم تعطل الكثير من مشاريع الإعمار بسبب الوضع الأمني المتدهور، ورغم عدم الايفاء بالوعود من الدول التي تعهدت بتقديم الدعم المالي للعراق، فإن العراق تمكن من اعادة بناء الكثير من الوزارات ومؤسسات الدولة وادارات الخدمات، وبذلك تمكن من تنفيذ مئات المشاريع خلال السنتين، فكل وزارة من وزارات الدولة لديها الآن موقع على الانترنت تنشر فيه ما انجزته من مشاريع وما حققته طوال هاتين السنتين. فوزارة التربية مثلا، اعادت ترميم وبناء ما يفوق على ٣٥٠٠ مدرسة لكل مراحل التعليم، وواظب مئات الآلاف من الطلبة في مدارسهم ومعاهدهم، وتم توفير الكثير من مستلزمات الدراسة مجانا للطلبة، واعيد الآلاف من المدرسين المفصولين سابقا للخدمة في التعليم، يقابل ذلك منجزات مشابهة في مجال الصحة والزراعة والنقل والمواصلات.

ورغم الانقطاع المستمر للكهرباء بسبب الاعمال الارهابية التي تستهدف هذه المنشآت الحيوية، فإن وزارة الكهرباء تمكنت من توفير نسبة أعلى من المعدلات السابقة أيام صدام من الطاقة الكهربائية. وتشير تقارير وزارة التنمية والتخطيط العراقية، وكذلك تقارير الوكالة الأميركية للتنمية الدولية التي تدعم مشاريع الإعمار في العراق ان هناك ما يقارب الـ ٣٤٠٠ مشروع اعماري تم تنفيذ ١٣٠٠ مشروع منها، اي ان الإعمار تعطل بنسبة الثلثين تقريبا.

متغيرات مهمة

بعد سقوط نظام صدام واجه العراق صدودا عربيا ودوليا واضحا لاسباب كثيرة، لكن العراق تمكن خلال السنتين من تحقيق تقدم في علاقاته العربية والاقليمية والدولية وحاز تغييرا واضحا في مواقف الدول لمصلحته، واضافة الى دعم الأمم المتحدة عبرت الجامعة العربية ومجلس التعاون الخليجي ومنظمات دولية كثيرة عن دعمها ومساندتها للحكومة العراقية الانتقالية واظهرت استعدادها لمزيد من الدعم للعراق.

ولو نظرنا إلى الأوضاع الأمنية، فإننا نرى تقدما ملحوظا في توفير الأمن والقضاء على مصادر العنف والارهاب، بسبب تنامي قدرات الاجهزة الأمنية واعادة بناء الجيش والحرس الوطني وجهاز الشرطة، ورغم وجود مناطق عديدة تشهد تدهورا أمنيا يوميا، فإن هناك الكثير من مناطق العراق تشهد أيضا استقرارا أمنيا.

السلبيات والمساوئ

لا يمكننا ونحن نرسم الوجه الجميل لعراق الغد ان نتجاهل السلبيات والسيئات والأخطاء التي تتحمل مسؤوليتها إدارة الاحتلال والحكومة العراقية والقوى السياسية المشاركة في العملية السياسية، فإدارة غارنر وبريمر السابقة تركت للحكومتين المؤقتة والانتقالية مشاكل كثيرة تتمثل في قرارات ارتجالية واجراءات ذات مردود سلبي اتخذتها تلك الحاكمية، اضافة الى تركة ثقيلة من الفساد المالي والإداري. فالتقارير التي صدرت اخيرا من هيئات تحقيقية ورقابية وما توفر لدى هيئة مكافحة الفساد في العراق من تقارير، كلها تكشف عن وباء كبير متفش في العراق اسمه ؟الفساد؟ وهو يهدد الى حد كبير كل هذه المنجزات. ويشكل مصدرا نشطا لطاقة التخريب في العراق، لقد شارك في تنمية الفساد في العراق طوال السنتين موظفون عراقيون عملوا في الإدارة المؤقتة والمست